التنظيمات الجهادية المسلحة في الساحل والغرب الإفريقيين

حمدي عبد الرحمن حسن*

ملخص: تسلط هذه الدراسة الضوء على الجماعات الجهادية العابرة للحدود، مثل تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وجماعة بوكو حرام التي تجد ملاذات آمنة في المناطق الصحراوية النائية في غرب إفريقيا، وتلاحظ الدراسة أن من العوامل المساعدة على انتشار هذه الجماعات هشاشة الدول الوطنية، وضعف الهياكل المؤسسية، وعدم قدرتها على ضبط المناطق الحدودية، ولا يخفى أن الجهاديين في غرب إفريقيا هم أقوى حاليًا من أقرانهم في شمال إفريقيا، وثَمّة زيادة ملحوظة في حجم الهجمات العنيفة التي تقوم بها مختلف الجماعات الجهادية المسلحة في المنطقة، وهذا يقود إلى أهمية إيجاد أساليب جديدة للتعامل مع تهديد التطرف الديني في غرب إفريقيا.

* جامعة القاهرة، مصر

Armed Jihadist Organizations in the Sahel and West Africa

HAMDI A. HASSAN*

ABSTRACT This study highlights the cross-border jihadist groups, such as al-Qaeda in the Islamic Maghreb and Boko Haram, which find safe havens in the remote desert areas of West Africa. The study notes that members of these groups have used the same desert roads, which had been used by Bedouin tribes and states that fragility of national states and their institutional structures as well as their inability to control border areas are factors that contribute to the spread of these groups. It is no secret that Jihadists in West Africa are now stronger than their peers in North Africa. The significant increase of violent attacks by jihadist groups calls for finding new ways to deal with the threat of religious extremism in West Africa.

* Cairo University, Egypt

رؤية تركية
2017 - (6/1)
76 - 63

يُطلق على منطقة غرب إفريقيا اسم (الحزام الإسلامي)؛ نظرًا إلى وجود كتلة كبيرة من السكان المسلمين، قد تصل في أقل التقديرات إلى 60 في المئة. ونظرًا إلى ارتباط عمليات التجنيد لتنظيمي القاعدة والدولة الإسلامية بتصاعد حركات الإسلام السياسي المتشددة والمعادية للغرب فقد اتجه نفر من المفكرين والمحللين الإستراتيجيين إلى القول إن مسلمي غرب إفريقيا يمثلون ملاذًا وبيئة حاضنة للجهادية الإسلامية العالمية[1] . وبالفعل تتركز معظم جماعات العنف المسلحة في المناطق الحدودية الصحراوية عبر الساحل والغرب الإفريقي. فالجماعات المتطرفة العابرة للحدود، مثل تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وجدت في المناطق الصحراوية النائية بيئة سهلة للتغلغل والانتشار، حيث إنها ارتبطت تاريخيًّا بطرق التجارة الرئيسة وشبكات الجريمة المنظمة. وقد ساعدت هشاشة دول المنطقة وضعف بنيتها المؤسسية وعدم قدرتها على التحكم في المناطق الحدودية، إضافة إلى وجود مستويات عالية من الفساد– على توفير حاضنة اجتماعية محلية لجماعات التطرف الديني. كما دفع إخفاق مشروع الدولة الوطنية في منطقة غرب إفريقيا بجماعات السلفية الجهادية إلى ترسيخ أقدامها في البنية القبلية والعرقية المحلية. وقد شهد عام 2016 تصاعدًا ملحوظًا في حجم عمليات العنف المسلح التي نفذتها الجماعات المنضوية تحت لواء كل من القاعدة وتنظيم الدولة في غرب إفريقيا[2].

ولا شك أن دراسة تطورات ومآلات الجماعات الراديكالية الجهادية في هذه المنطقة التي تشكل مركبًا صراعيًّا بالغ التعقيد، فضلًا عن تجسيدها لسياسات التكالب الدولي على إفريقيا تكتسب أهمية علمية معتبرة. فالمنطقة تعاني داخليًّا أزمات هيكلية ترتبط ببنية الدولة الموروثة عن الاستعمار، كما هو الحال بالنسبة لقضية الطوارق في بلدان، مثل مالي والنيجر. وتشمل عوامل عدم استقرار هذا الإقليم: الصراعات المسلحة، والانقلابات العسكرية، والتغييرات غير الدستورية للحكومات، وسوء إدارة العمليات الانتخابية؛ وشبكات الجريمة العابرة للحدود، ولاسيما الاتجار بالمخدرات والإرهاب والقرصنة البحرية في خليج غينيا، وكذلك تفشي الفقر والأمية، وتأثيرات تغير المناخ والتدهور البيئي.

ونظرًا إلى ارتباط المنطقة بأمن الطاقة العالمي فقد أضحت موضع تنافس القوى العالمية القديمة والصاعدة، كما أن تبعات عالم ما بعد الربيع العربي ولاسيما الوضع في ليبيا أسهم يقينًا في عولمة شبكات التطرف والإرهاب في المنطقة. وقد امتزج الداخلي بالخارجي والسياسي بالديني والاقتصادي بالقبلي وهلم جرًّا، وهو ما يجعل محاولة الفهم والتفسير لتعقيدات الجهادية العنيفة أمرًا صعب المنال. وعليه سوف تحاول هذه الدراسة الاستفادة من خبرة الباحث في تتبع مراحل تطور الخطاب الإسلامي في إفريقيا من أجل رسم خريطة معرفية لتطور الجهادية المسلحة في الغرب الإفريقي، ولاسيما جماعة بوكو حرام.

أولًا: الراديكالية الجهادية: محاولة للفهم

عادة ما يطرح التساؤل حول العوامل التي أسهمت في انتشار ثقافة العنف والتجنيد للحركات الإسلامية الجهادية في الغرب الإفريقي على وجه التحديد والفضاء الإفريقي العام

عـلى وجه العمـوم. صحيح أن ثمة مؤثرات تاريخية ترتبط بتطور الخطاب الإسـلامي في العالم العربي ومنطقة جنوب شرق آسيا، مثل قضايا (الجاهلية) و(الحاكمية) و(الفرقة الناجية)، إضافة إلى تحـولات الواقع السـياسي والاقتصادي في الشـمال العربي الإفريقي تحديـدًا، لكن العوامل المحلية الإفريقية تمثل الركيزة الأهم والأبرز في التفسـير. وعليه فإن أسـباب النزوع الراديكالي العنيف في إفريقيا ترتبط بقضايا الفسـاد والتهميش الاقتصادي والاجتماعي، وانتشار السخط العام بين جيل الشـباب، والانقسـام الفكري بين المدارس الإسـلامية وهلم جـرًّا. وقد ذهب عدد كبير من الكتاب إلى تأكيد هذا المنحى في التحليل حيث إن ظاهرة الراديكالية الإسـلامية في غـرب إفريقيا مرتبطة بعوامل محلية أكثر من ارتباطها بعوامل خارجية. ولعل ذلك التحليل يصطـدم بحقيقـة طبيعة (الإسـلام الإفريقـي) إن صح التعبير الـذي يعدّ أكثر تسـامحًا وقبولًا بالآخر، نظرًا لارتباطه الشديد بتقاليد الأخوّة الصوفية مثل القادرية والتيجانية.

إن إسـلام الغرب الإفريقي ذا النزعة الروحانية الصوفية مثّلَ سـدًّا منيعًا ضد أفكار الغلو والتطرف، بيد أن عمليات الانتقال الديمقراطي التي شـهدتها بعض الدول مثل مالي والنيجر في أعـوام التسـعينيات فتحت الباب واسـعًا أمام مؤثـرات فكرية وأيديولوجية مسـتوردة، إذ تسـللت جماعات سـلفية إلى داخـل هذه الدول، بحجـة إزالة البدعة وإقامة السـنة، إضافة إلى تأثير جماعات سـلفية أخرى مموّلة من الخارج، واصطدامها بالفكر الصوفي السـائد. ولا شـك أن هذا الانقسـام الديني والأيديولوجي مثّل حاضنة خصبة لظهور التيارات الدينية المتشـددة والعنيفة في منطقة الحزام الإسلامي الكبير في الغرب الإفريقي.

وقد أسـهم تنظيم القاعـدة في توفير الدعم الأيديولوجي والمادي لجماعات إسـلامية محلية في السـاحل والغرب الإفريقي، ففي أعقاب الضربـات الموجعة التي تعرض لها تنظيم الجماعة السلفية للدعوة والجهاد في الجزائر، وتحوله إلى تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي اضطر إلى الانتقال عبر الصحراء ليسـتقر في مالي. ومنذ عام 2003 أضحى تنظيم القاعدة أكثر قدرة

إنّ إسلام الغرب الإفريقي ذا النزعة الروحانية الصوفية مثّل سدًا منيعًا ضد أفكار الغلو والتطرف، بيد أن عمليات الانتقال الديمقراطي التي شهدتها بعض الدول مثل مالي والنيجر في أعوام التسعينيات فتحت الباب واسعًا أمام مؤثرات فكرية وأيديولوجية مستوردة

على البقاء من خلال الانخراط في شبكات الجريمة المنظمة، واستغلال الروابط مع السكان المحليين في عمق الساحل والصحراء من خلال علاقات النسب والتجارة. وقد استفاد التنظيم من غياب الدولة وضعف نظم المراقبة على الحدود، إضافة إلى تنامي مشاعر السخط ضد الأنظمة الحاكمة بين السكان المحليين[3].

يسير مدَّعو الجهاد بشكل عام في كثير من الأحيان على خطى شبكات التجارة والجريمة غير المشروعة، فالسيد مختار بلمختار الذي نفذ عملية (عين أمناس) في الجزائر عام 2013 يُطلَق عليه اسم (السيد مالبورو) لدوره الخفي في تهريب السجائر. ويتعاون مدَّعو الجهاد عمومًا مع تجار الأسلحة والمخدرات أو ينخرطون بأنفسهم في هذه التجارة غير المشروعة للحصول على تمويل عملياتهم العنيفة. ليس هذا فحسب، حيث شكّل أباطرة الكوكايين في أمريكا الجنوبية شراكات مع العصابات الإجرامية في الساحل والغرب الإفريقي، وذلك من أجل تفريغ حمولات بضائعهم غير المشروعة في البلدان الساحلية، مثل غينيا بيساو، حيث يتم حملها في شاحنات صغيرة لتصل عبر دروب الصحراء إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم تقصد بعد ذلك منتهاها في أوروبا. ومن المعلوم أن الصراعات بين شبكات التهريب المتنافسة في مالي وغرب النيجر أسهمت في لفت أنظار الجهاديين إلى إمكانات المنطقة باعتبارها ملاذا آمنًا. وقد كانت هذه الطرق الصحراوية التي يستغلها المهربون والمتطرفون معروفة للقبائل البدوية لعدة قرون خلت. ويبدو أن المتغير الوحيد هو استبدال سيارات الدفع الرباعي بالجمل.

ونظرًا لأن تنظيم القاعدة يظهر عداء شديدًا للغرب فقد استهدف من خلال أعضائه وخلاياه النائمة السياح الغربيين وموظفي الإغاثة، فضلًا عن موظفي الحكومة وأعضاء البعثات الدبلوماسية الأجنبية. وقد تمكن التنظيم من الحصول على التمويل اللازم من خلال عمليات اختطاف الأجانب والمطالبة بدفع فدية. فخلال الفترة من 2006 وحتى 2011 حصل التنظيم على نحو 70 مليون دولار فدية لمختطفين أجانب لديه[4]. وفي إطار عولمة الجهادية الراديكالية نقل تنظيم القاعدة هذه التكتيكات إلى الجماعات الأخرى التابعة له، مثل جماعة بوكو حرام التي تحولت إلى تنظيم الدولة الإسلامية بعد ذلك في عام 2015.

ويعد تنظيم المرابطين بزعامة عدنان أبو الوليد الصحراوي أحدث جماعة جهادية تعلن بيعتها لتنظيم الدولة بقيادة أبي بكر البغدادي. ويعمل هذا التنظيم في منطقة الساحل وغرب إفريقيا. وقد ظهر إلى الوجود نتيجة اندماج كل من حركة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا وكتائب الملثمين بزعامة مختار بلمختار، وهي تتألف أساسا من الطوارق والعرب في مناطق شمال مالي التي تضم تمبكتو، وكيدال وغاو، إضافة إلى عدد من الجزائريين والتونسيين ومقاتلين من جنسيات أخرى.

ومع ذلك، يمكن تلمس جذور النشأة الأولى للمرابطين من خلال تتبع تطور تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي الذي تزعمه عبد المالك دروكدال المكنى بأبي مصعب عبد الودود. ومن المعروف أن الجزائري بلمختار كان قائد أحد الألوية داخل تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي، إلى أن اصطدم فكريًّا مع زعيم التنظيم، وهو الذي أدى إلى انشقاقه وخروجه من القاعدة. ومن المتصور أن تكون الخلافات حول القضايا الإستراتيجية، بما في ذلك احتجاز الرهائن والحصول على الأسلحة، وكذلك مسألة إعادة هيكلة التنظيم- هي الدافع الرئيس لحدوث هذا الانقسام. كما عارض بلمختار الذي تحصّن تاريخيًّا بمنطقة الساحل خطة دروكدال إنشاء كتيبة جديدة في المنطقة، ولاسيما لواء طارق بن زياد التي يقودها أبو زيد، منافس بلمختار العتيد. وفي نهاية الأمر أُعفِي بلمختار من مهامه القيادية عام 2012. هذا التطور دفع مختار بلمختار إلى تأسيس كتيبة (الموقعون بالدم) من أجل توسيع نطاق تطبيق الشريعة الإسلامية، ومحاربة الفرنسيين وحلفائهم في المنطقة. على أن إعلان عدنان أبو وليد الصحراوي في مايو 2015 نيابة عن (المرابطون) ولاءه لتنظيم الدولة وتشكيل الدولة الإسلامية في منطقة الساحل الكبرى، أدى إلى حدوث انقسام آخر في صفوف المرابطين، فقد رفض مختار بلمختار إعلان الصحراوي باعتباره لا يمتلك تفويضًا من (مجلس شورى) الجماعة.

وعلى أي حال تنشط جماعة المرابطين والجماعات التابعة لتنظيم القاعدة في كل من مالي وبوركينا فاسو وكوت ديفوار والنيجر. وعادة ما تستهدف هذه الجماعات الجهادية في شمال ووسط مالي موظفي الأمم المتحدة وقواعد القوات الفرنسية والقوافل، وذلك باستخدام العبوات الناسفة والألغام على المحاور والطرق الرئيسة. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما قامت به جماعة أنصار الدين، وهي فرع من تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي، في فبراير 2016، حيث شنت هجومًا انتحاريًّا مصحوبًا بإطلاق صواريخ على موكب للأمم المتحدة في كيدال بدولة مالي، وهو ما أسفر عن مقتل ستة من قوات حفظ السلام؛ إضافة إلى سلسلة من الهجمات المماثلة في المنطقة نفسها في أكتوبر عام 2016. وتمثل مالي للجماعات الجهادية في منطقة الساحل، ما تمثله نيجيريا لبوكو حرام في منطقة بحيرة تشاد، فقد تعرضت مالي للعدد الأكبر من الهجمات الجهادية كما أنها استُخدِمت مركزًا إقليميًّا، تعتمد عليه المنظمات الجهادية في التخطيط وتنسيق العمليات ليتم تنفيذها في البلدان المجاورة.

ثانيًا: جماعة بوكو حرام وتعقيدات الواقع النيجيري

على الرغم من فوضى التسميات التي أُطلِقت على الجماعة منذ نشأتها عام 2002 فإنها أضحت تُعرَف على المستويات الأمنية والإعلامية باسم بوكو حرام، وإن مال البعض إلى وصفهم بأنهم طالبان نيجيريا. ومن الواضح تمامًا أن الاسم المفضَّل لأعضائها هو: (جماعة أهل السنة للدعوة والجهاد) كما أعلن أبو بكر شيكاو في أحد خطبه عام 2014[5]. وهناك من يطلق عليهم اسم (اليوسفية) نسبة إلى الزعيم المؤسس محمد يوسف، أو جماعة (التكفير

والهجرة) لكونهم يعتزلون المجتمع الفاسد ويهاجرون بعيدًا عنه. ويفضل بعض علماء المسلمين في نيجيريا نعت هذه الجماعة بصفة الخوارج وهلّم جرًّا[5].

وعلى أيّ حال فإن أصل تسمية (بوكو) بلغة الهوسا الذين يشكلون أكثر من 70 في المئة من سكان شمال نيجيريا تعني التعليم الغربي. وعليه فإن الترجمة اللفظية لاسم الجماعة تعني تحريم التعليم الغربي. وتشير المعلومات المتوافرة إلى أن هذه الجماعة تأثرت تأثرًا بالغًا بنموذج طالبان أفغانستان. فقد تبنت رؤية ضيقة للإسلام، حيث رأت في التعليم الغربي كفرًا وانحرافًا عن صحيح الدين الإسلامي. ولذلك فإن هذا التعليم يؤدي في المحصلة النهائية إلى إضعاف المجتمع الإسلامي. ومن الطريف أن أحدًا في المجتمع النيجيري لم يأخذ دعاوى ومعتقدات بوكو حرام منذ البداية مأخذ الجد، بل إن الجميع كانوا ينظرون إلى أعضاء الجماعة الذين أعفوا لحاهم وارتدوا زيًّا معينًا بازدراء شديد، غير أن تطور الأحداث أثبت بعد ذلك خطأ هذه النظرة غير الواعية لمدى قوة وتأثير جماعة بوكو حرام في نيجيريا وما حولها.

وقد استطاعت الجماعة أن تحشد في سنوات نشأتها الأولى العديد من الأتباع في ولايات بوتشي ويوبي وبورنو، حيث ترك الطلاب جامعاتهم ومدارسهم، كما تخلى بعض أصحاب المهن الرفيعة عن إعمالهم، وباعوا ممتلكاتهم الخاصة من أجل الانضمام إلى الجماعة والإسهام في الجهاد في سبيل الله لتخليص الإسلام من براثن النفوذ والهيمنة الغربية.

وتعتمد جماعة بوكو حرام في بناء رؤيتها الفكرية على ثلاث ركائز أساسية:

أولها: تحريم التعامل مع مؤسسات الدولة القائمة لأنها فاسدة وكافرة؛ فالنظام المصرفي يقوم على أساس الربا والإسلام يحرم الفائدة، كما أن الضرائب والقوانين الوضعية الأخرى، مثل قوانين الأراضي تخالف شرع الله.

أما الركيزة الثانية فإنها تتمثل في تحريم التعليم الغربي؛ لأنه غير إسلامي ويخالف تعاليم الإسلام. كالسماح بالاختلاط بين الأولاد والبنات في المؤسسات التعليمية، والقول بنظرية النشوء والارتقاء التي ترى أن أصل الإنسان يرجع إلى فصيلة القرود.

وعليه فإن الركيزة الثالثة في فكر جماعة بوكو حرام تتمثل في الهروب من كل هذه الرذائل التي يموج بها المجتمع الكافر والهجرة إلى مواقع بعيدة ومنعزلة عن المدن.

وتعتمد جماعة بوكو حرام إلى حد كبير على عرقية الكانوري بصفتها مصدرًا أساسيًّا للتجنيد بين صفوفها. والمعروف أن الكانوري يشكلون نحو عشرة ملايين، يعيشون في شمال نيجيريا وبعض دول الجوار، مثل الكاميرون وتشاد، وقد ارتبط الكانوري بحكم مملكة كانم برنو خلال الفترة (1086-1846م). ولعل ذلك يفسر، ولو جزئيًّا سعي جماعة بوكو حرام إلى إعلان الخلافة الإسلامية في عام 2014، أي قبل بيعتها لداعش. ولا شك أن هذا المكوِّن العرقي يعطي خصوصية في تحليل طبيعة وتطور الجماعات الجهادية العنيفة في إفريقيا مقارنة بنظيراتها في مناطق العالم العربي والشرق الأوسط عمومًا. إنّ بوكو حرام استطاعت الاستفادة من علاقات الانتماء والدعم العابرة للحدود، فثمة شبكات إقليمية قائمة منذ زمن بعيد على

وشـائج القربى وعلاقات التجارة، وتأثير الزعامات المحلية، فضلًا عن تنامي الاسـتياء العام بين صفوف الشباب المحرومين[7].

ولاشـك أن إخفـاق مشروع بناء الدولـة الوطنية في نيجيريا منذ اسـتقلالها عن بريطانيا في عام 1960 وتعرضها في فترات مختلفة لموجات من عدم الاستقرار على نطاق واسع شجّع على تبنّي الخطاب الإسلامي العنيف بديلًا لإخفاق المشروع الحداثـي الغـربي. وقـد عانـت نيجيريـا محاولـة انفصال المنطقـة الشرقيـة وإعـلان جمهوريـة بيافرا خـلال الفترة (1967–1970م)، كـما اشـتدت حدّة العنـف العرقي للسـيطرة على منطقـة دلتا النيجـر الغنيـة بالنفط خلال الفـترة 1992–2009م، ومنـذ عـام 2009،أضحـت بوكـو حـرام أخطـر جماعـة مسـلحة تواجههـا الدولـة النيجيريـة منذ الاسـتقلال. وجد في نيجيريـا العديد من خطـوط التـماس العرقيـة والدينيـة والاجتماعيـة، وهـو مـا ينعكـس يقينًـا عـلى طبيعة وواقـع سياسـة الدولة في مرحلـة ما بعد الاسـتقلال. فالصياغـة الفيدرالية الراهنـة تتألف من 36 ولاية يسـكنها نحو 250 مجموعـة عرقيـة، عـلى الرغم مـن أن القبائل الكـبرى المهيمنة هي: الهوسـا والفولاني في الشـمال، واليوروبـا في الغرب، والإيبو في الـشرق. وقد أدى تفشي الفسـاد المتأصل في هياكل الدولة إلى إخفاق الحكومات المتعاقبة على تحقيق الأهداف التنموية المنشـودة. كما طرح تدخل العسـكريين في الحيـاة السياسـية تحديًـا آخر أمـام تحقيق التنميـة والاسـتقرار، حيث خضعت البلاد منذ الاسـتقلال لأكثر من ثلاثين عامًا لسـيطرة الحكم العسـكري. واللافت للانتباه أن مسـتويات الفقر أعلى بكثير في مناطق الشـمال الشرقي (حيث معقل جماعة بوكو حرام) مقارنة بباقي أنحاء البلاد، وهذا يطرح سـؤال العدالة في التوزيع، ويعكس طبيعة الفجوة الاجتماعية والاقتصاديـة بـين المناطق الأكثـر فقرًا وتخلفًا في الشـمال، وهي ذات أغلبية مسـلمة، والمناطق الأكثر ثراء وازدهارًا في الجنوب، وهي ذات أغلبية مسيحية بالأساس.

تعتمـد جماعـة بوكو حـرام إلى حد كبير علـى عرقية الكانـوري بصفتها مصدرًا أساسيًـا للتجنيد بين صفوفها والمعـروف أن الكانـوري يشكلون نحو عشـرة ملاييـن يعيشـون فـي شمـال نيجيريـا وبعـض دول الجـوار مثـل الكاميرون وتشاد

بيد أن جذور الفكر التكفيري الذي تبنته جماعة بوكو حرام ومن قبلها حركة (مايتاتسـين) بزعامة محمد مروا الذي لقي مصرعه في اشـتباكات مع القوات الحكومية أوائل الثمانينيات من القـرن الماضي– هي بلا شـك ترجع إلى وقت بعيد يسـبق قيام الدولة النيجيريـة الحديثة. ففي عام 1804 ألف الشـيخ عثمان دان فوديو رائد حركة الجهاد الإسـلامي في غرب إفريقيا آنذاك وثيقة (أهل السودان)، وبيان تحريم موالاة الكفرة ووجوب موالاة مؤمني الأمة. يقول الشيخ عثمان في الوثيقة[8] : "فاعلموا يا إخواني أن الأمر بالمعروف واجب إجماعًا، وأن النهي عن المنكر واجـب إجماعًـا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجب إجماعًـا، وأن موالاة المؤمنين واجبة إجماعًا . وأن تأمـير أمـير المؤمنين واجـب إجماعًا، وأن طاعتـه وجميع نوابه واجبة إجماعًـا، وأن الجهاد واجـب إجماعًا، وأن تأمير الأمراء في البلـدان واجب إجماعًا، وأن تأمير القضاة واجب إجماعًا،

وأن تنفيذهم أحكام الشرع واجب إجماعًا، وأن حكم البلد حكم سلطانه إجماعًا، إن كان مسلما كان البلـد بلد إسـلام، وإن كان كافرًا كان البلد بلد كفـر وجبت الهجرة منه". وفي عام 1806 كتـب الرجـل أهم مؤلف في هذه الفترة، الذي يمكن عدّه دسـتور دولتـه، وهو "بيان وجوب الهجرة على العباد، وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد"، ويمكن من خلاله الوقوف على آليات و مفاهيم السـلطة السياسـية عند عثمان بن فودي. وقد كان لهذه الأفكار تأثير واضح في تطور الخطاب الإسـلامي في نيجيريا بعد الاسـتقلال، كما أظهرته خبرة كبير القضاة الشيخ أبي بكر غومي الذي أسس جماعة (إزالة البدعة وإقامة السنة)عام 1978م.

ثالثًا: تحولات بوكو حرام عبر الفضاء الإقليمي

يشكل عام 2016 الذي يمثل الذكرى السابعة لإعادة تأسيس بوكو حرام في يوليو 2009 نقطـة تحـول فاصلـة في مسـيرة الجماعة، وهو مـا يؤثر يقينًا في ملامح المشـهد الجيوسـتراتيجي للجماعات الإسـلامية الراديكالية، ليس فقط في إفريقيا ولكن على صعيد الشـبكات الجهادية المعولمة. ففي شهر أغسطس 2016، انقسمت الحركة إلى فصيلين، يقود أحدهما أبو بكر شيكاو الذي تولى قيادة التنظيم في أعقاب مقتل الزعيم المؤسـس للجماعة محمد يوسـف عام 2009، وهـو يتبنـى نهجًا أكثـر راديكالية وعنفًا، كـما أنه أعلن البيعـة لخليفة تنظيم الدولة الإسـلامية أبي بكـر البغـدادي في عـام 2015م[9]. بيـد أن صحيفـة النبـأ التابعة لتنظيم داعـش أعلنت في 2 أغسـطس تولي أبي مصعب البرنـاوي قيادة التنظيم باعتباره واليًا عـلى منطقة غرب إفريقيا. وقـد شـغل البرنـاوي وهو ابن مؤسـس الجماعة محمد يوسـف وظيفة المتحدث باسـم الجماعة في ظل قيادة شـيكاو. ويبدو أن الانقسـام بـين الفصيلين ذو طبيعـة أيديولوجية، حيث رفض البرناوي اسـتهداف المسـلمين المدنيين، في حين يميل شـيكاو إلى الأخذ بتكفير كل من الدولة والمجتمع سـواء بسـواء. ولاشك أن هذا الانقسام سـوف تترتب عليه تداعيات مهمة[10]. فقد بـات واضحًا من السـجال الإعلامي بين زعيمي الفصيلين أن إمكانية نشـوب مواجهة عنيفة من أجل السـيطرة قائمة، وسـوف تكرّس من حالـة العداء الفكري بينهـما. وبدهي أن يحاول كل فصيل بكل ما أوتي من قوة اكتسـاب مزيد مـن الموارد والأتباع، إذ يلاحظ أنه بينما يتحكم فصيل البرناوي المدعوم من تنظيم الدولة في معظم أنحاء شـمال ولاية بورنو، التي تشـترك في الحدود مع النيجر وتشاد والكاميرون على طول شواطئ بحيرة تشاد فإن فصيل شيكاو يسيطر على الأجزاء الوسطى والجنوبية من ولاية بورنو، حيث توجد غابات سامبيسا.

ولا يخفـى أن هذا الانقسـام سـوف يسـهم في تعقيد المشـهد الأمني في المنطقـة وما وراءه، فانطلاقًا من القناعات الأيديولوجية سوف يسلك فصيل البرناوي مسلكًا مغايرًا، حيث يركز على اسـتهداف المسـيحيين، وكذلك المناطق التي يعيش فيها الأجانب من الغربيين، أما جماعة شـيكاو فسوف تستمر على نهجها العنيف في استهداف الجميع بشكل أقرب إلى فوضوية حالة الفطـرة الأولى التـي تحدّث عنها توماس هوبز، وأطلق عليها اسـم (حـرب الكل ضد الكل). والنتيجـة المنطقيـة لهذا الوضـع بالغ التعقيد هـي إدامة العنـف في نيجيريا والـدول المجاورة،

ولاسيما في النيجر وتشاد والكاميرون. بيد أن الأكثر خطورة من ذلك كله هي عولمة هذا الانقسام الأيديولوجي، حيث إن فصيل البرناوي سوف يحاول الاستفادة من علاقته بتنظيم الدولة من أجل الحصول على مزيد من الموارد والمقاتلين الأجانب، الفارين من ساحة المعارك في كل من ليبيا وبلاد الشام.

وعلى صعيد آخر في ديسمبر 2016 أعلن الرئيس النيجيري محمد بوهاري أن الجيش النيجيري ألحق هزيمة ساحقة بجماعة بوكو حرام في معقلها الأخير بغابات سامبيسا. وعلى الرغم من أن هذا الإعلان لم يكن الأول من نوعه فإن جماعة جهادية مثل بوكو حرام ذات إسناد ديني وعلاقات وثيقة بالشبكات الجهادية المعولمة هي أبعد ما تكون عن الهزيمة النهائية، ففي أوائل عام 2014، كانت بوكو حرام قد تمكنت من طرد جميع القوات الحكومة النيجيرية من ولاية بورنو شمال شرق البلاد، والسيطرة على مساحة تبلغ 12000 ميل مربع. في ذلك الوقت، وعلى إثر ذلك، قام الجيش النيجيري، بالتعاون مع قوات من تشاد والنيجر بعملية عسكرية كبرى لاستعادة تلك الأراضي. وعلى الرغم من الخسارة الفادحة التي مُنيت بها الجماعة، فإن مقاتليها استطاعوا الهرب إلى أعماق الصحراء. وثمة احتمال كبير أن تتحول بوكو حرام بعد كل هذا الحشد الإقليمي ضدها إلى منظمة سرية، وهو ما يعني إخفاء أسلحتها، والذوبان في صفوف السكان المدنيين، أو عوضًا عن ذلك قد يختار أعضاؤها العبور من خلال الحدود إلى النيجر وتشاد، وهو ما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار الإقليمي في مناطق الشرق باتجاه وسط إفريقيا. ولعل النتيجة المنطقية والحالة هذه هي أن الحرب في منطقة بحيرة تشاد أبعد ما تكون عن نهايتها المرجوة.

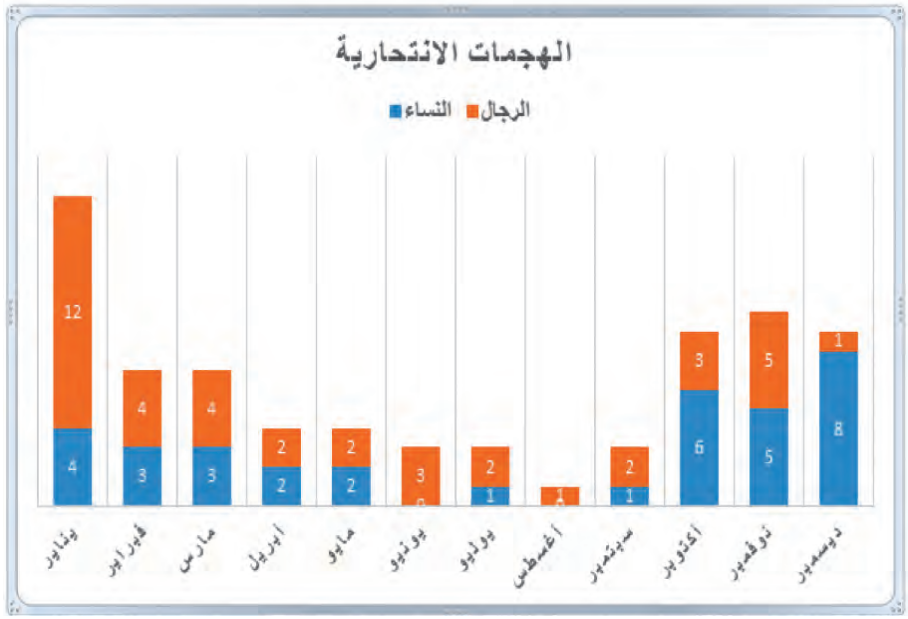

شكل رقم2: تطور الهجمات الانتحارية حسب النوع 2016

المصدر، اعتمادًا على قاعدة بيانات معهد الدراسات الأمنية، بريتوريا، جنوب إفريقيا، 2017

وتشير بيانات الاعتداءات المسلحة التي نفّذتها جماعة بوكو حرام في عام 2016 أنها انخفضت بالمقارنة مع عام 2015 بنسبة 29٪، ولعل ذلك يؤكد الاتجاه العام، وهو تراجع حوادث العنف التي تقوم بها بوكو حرام على مر السنين، فقد ساعد الضغط العسكري النيجيري، والتدخل الإقليمي على تقليص مسرح العمليات الذي كانت المجموعة قادرة على مهاجمته، ولاسيما المناطق الحضرية الكبرى في وسط البلاد، مثل أبوجا أو كانو. ومع ذلك، فإن عام 2016 شهد تحولًا كبيرًا في جغرافية عنف بوكو حرام منذ إنشائها، حيث وقعت أغلبية حوادث العنف التي تقوم بها (52٪) خارج حدود نيجيريا، وهو الأمر الذي يعزز توصيف الجماعة بأنها باتت تمثل تهديدًا إقليميًّا. ووقع نحو 45٪ من الهجمات في شمال الكاميرون. كما شكلت الهجمات الانتحارية إحدى السمات البارزة للمنطق العنيف الذي تتبناه بوكو حرام، وقد استُخدِم هذا التكتيك بشكل متزايد منذ عام 2014 فصاعدًا، بما في ذلك عن طريق استخدام النساء الانتحاريات، أضف إلى ذلك أن أحد الاتجاهات الإيجابية الأخرى في الحرب على بوكو حرام هو أن ما يقرب من نصف إجمالي الهجمات الانتحارية التي نفذتها الجماعة في عام 2016 كانت غير ناجحة، فقد تنفجر العبوة في حاملها فتقتله فقط، أو يُعتَرض الانتحاري قبل وصوله إلى الهدف، ويرجع ذلك إلى تسيير العديد من الدوريات الأمنية، وإقامة نقاط التفتيش في المناطق المستهدفة.

رابعًا اقترابات المواجهة ومنع التطرف

تقول أودري كيرت كرونن Audrey Kurth Cronin في كتابها (كيف ينتهي الإرهاب؟): "إن ثمة ميلًا تاريخيًّا يؤكد على فشل الإرهاب"[11]. ولعل المعركة الحاسمة التي تسهم في اجتثاث جذور الإرهاب تتمثل في إفشال عملية توريث الأفكار المتطرفة عبر الأجيال، بالإضافة إلى خلق بيئة فاعلة للمشاركة السياسية التي تستوعب جميع المواطنين على قدم المساواة. وتُظهر الخبرة المعاصرة في محاربة الإرهاب تحديات البحث عن الإستراتيجيات الملائمة لتكريس الشرعية السياسية، ومنع التبشير بأفكار ومعتقدات التطرف والغلو الديني. وخلال العقدين الماضيين بات واضحًا التحول من المنظورات الأمنية والعسكرية، ليتم تبني اقتراب (ناعم) لمحاربة الإرهاب.

ويتضمن المنظور الناعم سعيًا حثيثًا نحو التخلص من بيئة التطرف الفكري، وهندسة عملية العودة الآمنة للمتطرفين إلى أحضان الاعتدال المجتمعي، وتزويدهم بشبكة دعم مستمرة، والتغلب على الأسباب المؤدية إلى التطرف، وفك الارتباط بينهم وبين المعتقدات المتطرفة وبيئتها الاجتماعية الحاضنة. ويطلق البعض على المنظور الناعم في محاربة الإرهاب اسم (التحصين المعرفي) بحسبانه جزءًا من حرب أوسع ضد الأفكار المرتبطة بالتطرف والإرهاب، وتلك التي تدعو إليه وتحض عليه. ولا شك أن هذا المنظور ينظر إلى الإرهاب باعتباره مشكلة مجتمعية، وهو ما يجعل من الضروري تبني رؤية تكاملية تجمع بين الدولة والمجتمع المدني من أجل توحيد الجهود في محاربة التطرف الفكري والإرهاب العنيف.

إن استراتيجيات منع التطرف العنيف ومواجهة الراديكالية في منطقة غرب إفريقيا ينبغي أن تشكل مزيجًا فريدًا من سياسات الإكراه والترغيب بما في ذلك الحوافز المالية لإقناع المتهمين بالإرهاب على نبذ التطرف العنيف. هذه السياسات تتألف من مكونين أساسيين: أولهما: (معرفي ثقافي) بما في ذلك مواجهة الحجج ومحاربة الأفكار، والثاني هو عنصر حفز للمتطرفين وعائلاتهم على أساس الدعم المادي والتدريب المهني. وثمة تجارب عربية وآسيوية تطرح مجموعة متمايزة من الخصائص التي تركّز بشكل خاص على التناغم الاجتماعي، لمنع التطرف العنيف ومواجهة الراديكالية من خلال تأكيد الأخلاق الاجتماعية، والقيم الأسرية في محاولة لإعادة تأهيل وإعادة إدماج المتطرفين.

وعلى الرغم من مقولة حتمية فشل الإرهاب وأهمية تبني إستراتيجيات بعيدة المدى لاجتثاث جذوره والتخلص من البيئة الحاضنة له فإن حلًّا سريعًا للتخلص منه لا يلوح في الأفق القريب. فقد أضحت بوكو حرام حالة بالغة التعقيد، حيث تحولت مواجهتها إلى حرب إقليمية، ففي فبراير 2013 تبنت المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إيكواس) إعلان ياموسوكرو لمكافحة الإرهاب، وهو ما يجسد تتمة لعملية شاملة بدأت في عام 2009 وشارك فيها خبراء أفارقة وأجانب إضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني[12].

ويكتسب إعلان جماعة الإيكواس لمكافحة الإرهاب أهمية خاصة من عدة جوانب، فهو قد تبنّى تعريفًا مشتركًا للإرهاب، فعلى سبيل المثال نُصَّ على أن الدول الأعضاء تدين وبشكل قاطع جرائم الإرهاب، وكل ما يتعلق بها سواء التحريض أو التمويل، كما أن وقوع أي هجوم إرهابي في دولة عضو يعد هجومًا على الدول الأعضاء كافة. ومن جهة ثانية نصّ الإعلان على ضرورة تبني إستراتيجية شاملة تنتهجها الدول فرادى وجماعات لمواجهة تهديد الإرهاب، وتقوم هذه الإستراتيجية على ثلاث ركائز هي: المنع والملاحقة وإعادة البناء. وتعد الركيزة الأولى الأهم، حيث إنها تتعامل مع مسببات التطرف والعنف. أما الملاحقة فإنها تعني سرعة استجابة الدولة من خلال التحقيق، وإحباط الخطط الإرهابية، وضمان اجراءات العدالة، في حين أن إعادة البناء ترتبط بمعالجة الآثار الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالإرهاب وحملات مكافحته.

كما أُعلِن عن تشكيل مجموعة الدول الخمس في الساحل الإفريقي، التي تضمّ كلًّا من موريتانيا ومالي والنيجر وتشاد وبوركينا فاسو. وقد اتخذت هذه المجموعة من نواكشوط مقرًّا لها. وهي تهدف إلى تبني مشروع مارشال إفريقي بغية احتواء الجماعات الجهادية المتطرفة، وتنسيق خطط التنمية الخاصة بالدول الأعضاء. ولعل جميع الاستجابات السابقة على تنوعها تعكس مدى الاهتمام الإفريقي بتحديات الظاهرة الإرهابية.

وعلى صعيد التجارب الوطنية يمكن الإشارة إلى خبرة نيجيريا في مكافحة الإرهاب، إذ على الرغم من فشل الحلول الأمنية في مواجهة بوكو حرام فقد استطاعت بعض الأجهزة الحكومية صياغة اقتراب ناعم لمنع التطرف الفكري والعنف على المدى الطويل. ويحاول هذا الاقتراب إدماج المرأة في جهود مواجهة قضايا الإرهاب والعنف المسلح، إذ يتم تدريب الأمهات على طرق مكافحة التطرف الفكري والديني ومراقبة أي تغيرات سلوكية تطرأ على أطفالهن. وبعد تعدد جرائم اختطاف وقتل الأطفال في نيجيريا خرجت المسيرات النسائية رافعة شعار (لدينا المزيد من بوكو حرام)، في إشارة إلى الفشل الحكومي في مواجهة المد الإرهابي. ولا يقتصر هذا الاقتراب النيجيري على إدماج المرأة، ولكنه يشمل إعادة النظر في مناهج التعليم بهدف توكيد مهارات التفكير النقدي، وغرس قيم الإبداع والقبول بالآخر في القمة الإفريقية المنعقدة في أديس أبابا نهاية يناير 2015 التي أُقِرَّ فيها إنشاء قوة مشتركة متعددة الجنسيات قوامها (8700) جندي لمحاربة بوكو حرام.

الخاتمة

من الواضح أنه لا يوجد أي دليل على وجود تنسيق إستراتيجي أو تكتيكي بين تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي وجماعة بوكو حرام؛ فعلى الرغم من وجود قواسم مشتركة في خطابهما الديني إلا أنهما من الناحية الواقعية على خصومة وشقاق[13] . وبطبيعة الحال فإن تنظيم القاعدة في جناحه الإفريقي أوسع نطاقًا، ويعادي الغرب (العدو الأكبر) بعنف شديد، كما يتبوَّأ الجهاديون من الجزائر مواقع الصدارة في هيكله التنظيمي. أما جماعة بوكو حرام، وعلى الرغم من إعلانها البيعة لتنظيم الدولة الإسلامية فإنها تركز في عملياتها على تدمير الدولة النيجيرية ومناطق الجوار الإقليمي بدلًا من إعلان الحرب ضد الغرب. ويبدو أن المجموعة العرقية المسيطرة في الجماعة تنحدر من صفوف الكانوري التي تعيد إلى الأذهان التاريخ النضالي لمملكة كانم وبورنو في بحيرة تشاد. وعلى الرغم من لهجتها غير المعادية للغرب، فإنها لا تزال تستهدف الرعايا الأجانب والمنشآت الغربية في الإقليم.

أظهرت الهجمات الإرهابية العنيفة التي شهدتها دول في مراحل التحول الديموقراطي وتوجد فيها انقسامات وجماعات مهمشة مثل بوركينا فاسو ومالي وساحل العاج ونيجيريا- أن التنظيمات الجهادية أضحت تركز على الأهداف سهلة المنال. فالمنتجعات الشاطئية والفنادق وأماكن العبادة يمكن الوصول إليها بسهولة، مقارنة بمراكز الشرطة أو ثكنات الجيش. ومع تصاعد الضغط من قبل الأنظمة العسكرية والأمنية في بلدان الشمال الإفريقي على التنظيمات الجهادية العنيفة، ولاسيما المنضوية تحت لواء القاعدة والدولة الإسلامية، كما تُظهر خبرة كل من الجزائر وليبيا- فإنه من المحتمل أن يتجه مقاتلو هذه الجماعات صوب الجنوب؛ ليتخذوا من الصحراء ومناطق الحدود الهشة ملاذًا آمنًا لهم. وليس من المستبعد أن تكون منطقة الغرب الإفريقي بخصائصها الجيوستراتيجية بالغة التعقيد هي المحطة التالية في مسيرة الجهادية العالمية بعد منطقة بلاد الشام.

الهوامش والمصادر :

1. Obi, Cyril. 2010. "Terrorism in West Africa: Real, Emerging or Imagined Threats?" Terrorism in Africa: the Evolving Front in the War on Terror. 5771-.
2. وفقًا لتقديرات مؤسسة الدفاع عن الديمقراطية فإن تنظيم القاعدة والجماعات التابعة له شنت نحو 257 هجومًا على الأقل في مالي ومنطقة غرب إفريقيا في عام 2016، وذلك بمعدل زيادة قدرها 150 في المئة عن هجمات عام 2015 . انظر
Caleb Weiss وAl Qaeda linked to more than 250 West African attacks in 2016, The Long War Journal. January 7, 2017
3. Goïta, Modibo. West Africa's Growing Terrorist Threat: Confronting AQIM's Sahelian Strategy. Washington, DC: Africa Center for Strategic Studies, 2011
4. Gow, J., In Olonisakin, F., & Dijxhorn, E. (2014). Militancy and violence in West Africa: Religion, politics and radicalisation.
5. انظر كتابنا: تحولات الخطاب الإسلامي في إفريقيا، القاهرة: مركز الأهرام للنشر، 2016.
6. ظهرت جماعة بوكو حرام تحت مسميات أخرى منذ تسعينيات القرن الماضي، ومن ذلك مثلًا جماعة أهل السنة والجماعة، وجماعة الهجرة، واليوسفية. ويبدو أن زعيم الجماعة محمد يوسف أعجب في مرحلة من حياته بأفكار جماعة إبراهيم الزاكزكي ذات التوجهات الشيعية، وهو ما دعاه إلى الانضمام إليها، بيد أنه عندما انشق عنها الشيخ أبوبكر مجاهد، وأسس جماعة التجديد الإسلامي في كانو انضم إليه محمد يوسف، حيث تقلد منصب أمير الجماعة في ولاية بورنو، انظر في تفصيلات ذلك:
Abimbola Adesoji, The Boko Haram Uprising and Islamic Revivalism in Nigeria, Africa Spectrum , 2010,Vol 45.No 2. P98.
7. Boko Haram men join ISIS in Libya ,Niger at: http://thenationonlineng.net/ 80 /boko-haram-fighters-join-isis-in-libya-niger
8. أحمد محمد كانمي، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي، 1987، ص83.
9. Freedom C. Onuoha, Split in IS IS-Aligned Boko Haram Group at https://goo.gl/YWMujE
10. ليس هذا هو الانقسام الوحيد في صفوف بوكوحرام، ففي عام 2012 انفصلت عنها جماعة (أنصار المسلمين في بلاد السودان)، وهي منظمة جهادية متشددة مقرها شمال شرق نيجيريا، وتمتلك هذه الجماعة روابط وشبكة اتصالات بتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وحركة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا، وقد اعتبرتها دول أوربية منظمة إرهابية.
11. Cronin, Audrey Kurth. How Terrorism Ends: Understanding the Decline and Demise of Terrorist Campaigns. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2011.
12. Kieh, George Klay. West Africa and the U.S. War on Terror. [Place of publication not identified]: Routledge, 2014.
وانظر أيضًا : كيف تواجه إفريقيا الإرهاب : https://goo.gl/q1W74k
13. John Campbell, Radical Islamist Terrorism in West Africa, AL-Qaeda in the Islamic Maghreb and Boko Haram are both renewing attacks in the region. 2016/21/3.